

التشكيلي ضياء العزاوي السائر في رؤياه

فهو أشبه ما يكون بمجموعة علامات على تلك الطريق أو هو رسم سريع لجملة مسالكها وحدودها. وعندني إن هذا الكتاب أبعد بكثير عن هذا التواضع في وصفه، بل عما قال عنه الزيدي، وهو صاحب المشروع وواضع الأسئلة ولا أشك في أنه بذل جهداً عملياً ومعرفياً في مشروعه هذا، واستطاع أن يفتح بالملق على أمداء واسعة من تجربة التشكيلي ضياء العزاوي وهي تجربة كبيرة على صعيد الزمن والإنجاز وعلى صعيد البحث والإضافة.

حميد سعيد
كاتب عراقي

السائر في رؤياه، حوارات مع الفنان التشكيلي العراقي البارز ضياء العزاوي، أجراها وجمعها في كتاب، الشاعر والناقد الفني خضير الزيدي، وصدر عن مطابع دار الأديب في العاصمة الأردنية، عمان. إن ضياء العزاوي، من جيل الستينات من أجيال التشكيليين في العراق، هذا الجيل الذي ضم مجموعة من الموهوبين الذين نجحوا بجدارته، ليس في التواصل مع جيل الرواد المؤسسين فحسب، بل أضاف بعضهم إلى التجربة التشكيلية في العراق، وهي بالغة التميز، إضافات في المنجز التشكيلي والفكر التشكيلي في آن واحد، ما لفت إليها الأنظار، وكان ضياء العزاوي من بين أكثر مبدعي جيله حضوراً، منذ بداياته الأولى، ليس في العراق فقط بل في المحيط العربي، وأذكر أنني وصلت إلى المغرب في العام 1975 فوجدت اسمه متداولاً في الصحافة الثقافية وفي أوساط التشكيليين المغاربة، واستمعت من متقنين مهتمين بالفن التشكيلي، إلى من يقول بتأثير العزاوي في بعض الرسامين الجدد، وإلى من يقول بتأثير الرسام محمد القاسمي به.

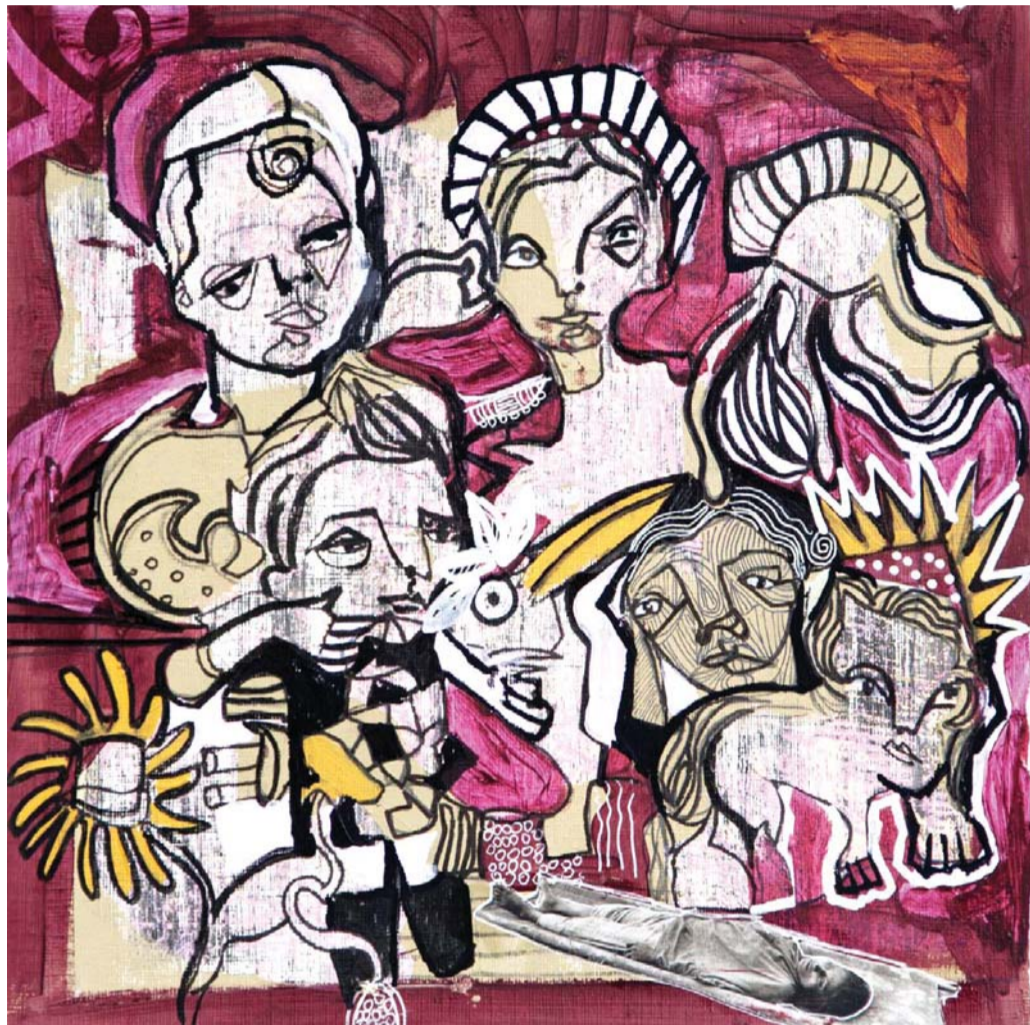
لقد وصفه الناقد خضير الزيدي بالقول: ضياء العزاوي، اسم فني من الجيل الستيني في العراق، حقق منذ ذلك التاريخ حتى هذه اللحظة، قدراً كبيراً من الأهمية الفنية، من خلال أطروحاته الفنية وتقنياته في الرسم والنحت وإنجاز المديونات التي تخص الشعر بصياغة جمالية تعبيرية، ولأن مكانته المميزة تحققت نجاحاً متواصلًا في هذا الزمن عبر اشتغالاته التي تركت آثارها في نفس كل من تابع تجربته.

والزيدي بعده: انموذجاً جلياً للفنان الملتزم بخطاب الجمال والفكر والنراء الإنساني، وحاول في حواراته أن يوضح لمثوقني فن العزاوي، كيف يفكر بمنجزه في الرسم، وكيف حقق حلمه، ولماذا اختلف مع آخرين من جيله ومن أجيال أخرى، وحاول الوقوف طويلاً عند تزعته التجريبية التي رافقته دائماً ولم تتوقف.

أما الناقد عمار داود فيحاول أن يقرب بالقارئ من قيمة كتاب "السائر في رؤياه، حوارات مع ضياء العزاوي" فيقول: ما جاء في هذا الكتاب من حوارات، لا تبدو أكثر من إضافات، تستعمل في تعشش القارئ إلى المزيد من المعلومات، فليس هذا الكتاب تاريخاً ولا دراسة بالرغم من توفره على بعض نفاحات من هذا، بل هو دليل لمن ستثار عنده أسئلة لم ينتهي من قراءته. إنه دليل لطريق طويلة حافلة بمسرات المعرفة البصرية ومنتحتها.

الخطاب الروائي اليمني من الازدواج إلى اللامبالاة

الرواية هي النوع الأدبي المفضل للمتخصصين في سوسيولوجيا الأدب



شخصيات روائية تكشف خفايا المجتمع (لوحة للفنانة نور بهجت)

وقبلية- متعارضة ومتناقضة، لم تسمح لها بتبني لهجة جماعية تجسد خطابها بوضوح، فذلك لو حدث سيهدد مصالحي الأثر المكونة للجماعة المهيمنة عبر تكريس تناقضاتها، لذلك ظل كل مكون من مكوناتها محتفظاً بنظامه التصنيفي الخاص وظلت الجماعة تمارس خطاباً يعبر عن الجموع ظاهرياً، بينما هو في حقيقته يتعارض مع خصوصية مكوناتها.

لامبالاة عامة

في تحليله لرواية "عقبيلات" لنادية الكوكباتي، يرى الكاتب أنها تتفاعل مع اللهجات الجماعية السائدة في الوضع السوسيو لغوي، ومن أبرزها لهجة الجماعة المهيمنة، فيبدو واضحاً خطاب نقدي لا يستند إلى قاعدة أيديولوجية، وتبدو الرواية من هذه الناحية عرضاً لصراع غير مباشر بين خطاب ثقافي أبوي مهين وخطاب نقدي ليس نسوبياً كما يوهم عنوان الرواية، وإن كان هم المرأة هو الأكثر حضوراً، وينبني العالم الدلالي للرواية على تعارض بين الازدواج الدلالي وغياب المعنى، فتصبح الكتابة قيمة مناهضة ويصبح رفض المعنى الأيديولوجي في الرواية فعلاً نقدياً، يعمل من خلال الكتابة على فتح نافذة تمكنه من التعبير عن الذات، وفي ظل هيمنة الازدواج وانعدام المعنى لم يعد مهما اختيار الأسماء أو الكلمات، أو اختيار تقنيات معينة، فالهم هو استعادة المعنى.

أما في رواية علي المقري "طعم أسود رائحة سوداء" فلا تهتم اللغة المحايدة إلا بالشكل العام، دون النفاذ إلى ما وراءه، لذلك تخلو الأوصاف من أي بعد تحليلي ويتم تقديم المشاهد بطريقة فوتوغرافية تخلو من العاطفة، وهو ما يسميه الناقد لامبالاة دلالية ويرى أنها تتعارض مع الازدواجية القيمة ومع الأيديولوجيات، وبهذا المعنى تتعارض الرواية مع القص التاريخي فتحاول إظهار ازدواجيته وتناقضاته، ومن ثم لا تصادقته، وبالتالي تكف فداحة الواقع الذي تكرر له الثقافة الرسمية، فاللامبالاة الروائي والشخصيات في الرواية جاءت نتيجة للازدواجية القيمة التي تمارسها الجماعة المهيمنة.

للغربي عمران، و"عقبيلات" لنادية الكوكباتي، و"طعم أسود رائحة سوداء" لعلي المقري، و"قهوة أميركية" لأحمد زين. ويتساءل الكاتب عن الرواية ولماذا هي النوع الأدبي المفضل بالنسبة إلى المتخصصين في سوسيولوجيا الأدب منذ جولدمان ثم باختين وغيرهما وصولاً إلى زيمبا، ويرى الباحث أن الإجابة تكمن في خصوصية الشكل الروائي وطبيعته المرنة، مما يجعل الرواية بحسب زيمبا، تمثل مواقف بذلك عكس الشعر الذي يتجه إلى اللغة أو إلى العالم النفسي، فالشعر أحادي الصوت واللغة، بينما الرواية قادرة على استيعاب الخطابات الاجتماعية المختلفة والمتناقضة، وبالتالي تصبح أقدر من غيرها من الأنواع الأدبية الأخرى في استيعاب تغيرات المجتمع، وإظهار تعدديته.

مصنف أحمر

تتفاعل الرواية مع الازدواج القيمي والدلالي القائم، وتستوعب بدرجة أساسية بعض تعارضات ومفردات اللهجة الجماعية الأيديولوجية للاشتركيين، ولهجات أخرى ليبرالية تتشارك معها في جزء من تعارضاتها القيميية والدلالية، مما يشكل أساساً للهجة جماعية معارضة للثقافة الرسمية، واللغة الأكثر حضوراً بمفرداتها في الرواية هي لهجة الاشتراكيين مما قد يوحي بان الرواية تميل إلى خطابهم الأيديولوجي لكن التحليل السوسيو نقدي يثبت خطأ ذلك تماماً. الأشخاص الذين يتبنون هذا الخطاب يقعون في الازدواجية التي يحاربونها عبر خطابهم، وتتفاعل الرواية بدرجة أقل مع لهجة أخرى لزعماء القبائل ورجال الدين تتقاطع مع لهجة الثقافة الرسمية المهيمنة، فيصنفون الاشتراكيين بالخيريين ويتهمونهم بالكفر، وتظهر الرواية الصفة القمعية للخطاب المهيمن الأبوي والديني، ويظهر التحليل أن الطريقة التي تكونت بها الجماعة المهيمنة من جماعات -عسكرية ودينية

اعتمد علم النفس كثيراً على الأدب في تحليلاته ونظرياته الهامة، حيث كانت أغلب النظريات المؤسسة في علم النفس مبنية على نصوص أدبية خاصة منها الروائية. وعلى خطى علم النفس سار كذلك علم الاجتماع الذي اعتمد بدوره على الروايات. علوم أخرى كانت الروايات مصدراً لها، وهو ما انتبه إليه النقد الأدبي الذي انفتح بدوره على علوم أخرى، فيما تبقى الرواية الجنس الأدبي الأكثر قابلية لمختلف البحوث.

أحمد رجب

القاهرة - ربط الأدب بالمجتمع عبر اللغة، هو مشروع قديم تبناه عدد كبير من المفكرين والنقاد، ومن بينهم بيير زيمبا الذي شرع في تحقيقه منذ سبعينات القرن الماضي. وفي كتابه "النص والمجتمع" ينظر زيمبا إلى اللغة باعتبارها المعطن القابل للتحليل الذي يربط بين النص وواقعه الاجتماعي. لم يهتم زيمبا فقط بدراسة النص بل اهتم بمعرفة كيفية تجسد القضايا الاجتماعية في المستويات الدلالية والتركييبية والسردية للنص. وقدم منهجاً نقدياً سوسيولوجياً قوامه الخروج من النص إلى دائرة المجتمع والمتلقي لهذا النص، ولم ينس زيمبا أن النص الأدبي ليس وثيقة تاريخية يعتمد فيها المؤرخ على التأكيد على صحة أمر ما من عدمه، بل يظل الأدب قادراً على تجاوز هذه المرحلة.

الرواية لماذا؟

في كتابه "الرواية والمجتمع... قراءة سوسيونقديّة" أفاد الناقد الأكاديمي اليمني عبدالمعنى دهوان من دراسات بيير زيمبا، فناقش العلاقة التي تربط الرواية بالمجتمع، من منطلق جديد لا ينزع مثل الدراسات التقليدية صوب المطابقة المباشرة، سواء انعكاساً للواقع أو تشابهاً معه، بين مضامين النص الأدبي وما يحدث في الواقع الاجتماعي وهو ما أدى إلى إهمال البنى النصية الدلالية والسردية، مع تغليب المعطيات الخارجية عن النص المرجعية والتوفيقية. وذكر الكاتب أن كتابه يركز على التصورات التي طرحها بيير زيمبا كونها أكثر شمولية واستيعاباً وقرابة من النصوص لذاتها ومن أجل ذاتها. في الكتاب، الصادر عن دار أمجد للدراسات والنشر بالازد، يقوم دهوان بدراسة وتحليل أربعة نصوص روائية يمنية، هي: "مصحف أحمر"

القارئ يمكنه حين ينتهي من قراءة الحوارات أن يتعرف بوضوح على الفنان وأن يرى بوضوح أفكاره ومحيطه الاجتماعي

بل لقد رأيت في ما افتتح به مشروعه، حيث أفصح عن خشية وشك وتردد، في أن ما نواه في حواراته مع ضياء العزاوي، مغامرة لا تخلو من غموض، والجلوس في محترف واسع يقود إلى حالة ذهول والتباس في محيط يزدحم بضروب من الفن، يفتح على سؤال، أين وكيف تكون البداية؟ وفي حالة من اليقين، عليه أن يبادر إلى جمع أوراقه واستحضار معارفه، ما رأى وما قرأ وما سمع، ليضعها في سياق أسئلة يطمح أن تكون الإجابات عنها، معرفة بالفنان وزمنه وفضائه الإبداعي والاجتماعي، بينما كانت نتيجة الحوارات، مهمة وكاشفة ومفيدة، أي على غير ما أحاط الزيدي من خشية وشك وتردد.

إذ يمكن للمتلقى حين الانتهاء من قراءة الحوارات، أن يتعرف بوضوح على الفنان، إنساناً ومبدعاً، وأن يرى بوضوح محيطه الاجتماعي والمعرفي وأن يتعرف على مصادره الفكرية والجمالية وما أقرن بهما من مؤثرات، وما أفاد منه في دراسته الجامعية، حيث اختار قسم الآثار ومن ثم أفاد من تجربته الوظيفية حيث المؤثرات التراثية إذ عمل مدة سنتين مشرفاً على تهيئة متحف الأزياء، تنقل خلالها في مناطق مختلفة من العراق فتعرف على الأزياء في مختلف البيئات وتعرف على الصناعات اليدوية، بأشكالها والوانها ومصادرها التاريخية.

ثم كانت إقامة المبكرة خارج العراق وما منحتها من فرص للمشاهدة والتأمل والحوار. وأفاد كذلك، كما يتضح ذلك من بعض إجاباته، من تجارب من سبقه ومن عاصره من الفنانين ومن طبيعة علاقته بهم، سواء في حالة الاتفاق أم الاختلاف. وقبل أن أنهى مقالتي، ساتوقف عند قضيتين إيجابيتين وردتا في الحوارات وتحسبان للعزاوي، الأولى، حين يقوده السؤال إلى حالة اختلاف عاشها مع الآخر، وجدته يكتم انفعالاته، إلا في حالات نادرة، ويحاول أن لا يغادر تماسكه وموضوعيته، والثانية، حين يقوده السؤال، إلى ما هو نظري، لا يعجم الأفكار التي يقول بها ولا يرتدي جلباب المنظرين، بل ظل يتحدث على امتداد الحوارات معه، عن وجهات نظر شخصية وقناعات ذاتية، سواء ارتضاها الآخر - المحاور أم تقاطع معها.

فنان قاده السؤال إلى الاختلاف (لوحة للفنان ضياء العزاوي)

